قراءة لقصيدة: يااااااا (أنتِ)

للشاعر/ أحمد عبد الغني الجرف

قراءة / منجية بن صالح

يااااااا (أنت)

———

يا .. (أنتِ) !! و احترقتْ (أنايا)!
يا .. (أنتِ) يا معنايَ .. يا .. يا ..
جُرِّدتُ مِنِّي كـــيْ أكـــونَـــكَ ،
هل ظفرتِ بمحتوايا ؟
أوشكتُ - حتَّـى في خـطابِيْ -
أنْ أواجهَـــني بلا (يا)
أحرقتُ كُـــلَّ بدايـــةٍ وخذلتِ
عنـــدَكِ مُنتهـــايا
و طمستِ رائحـــةَ الغـــرامِ ،
ذبحــــتِ أشجانَ الزَّوايـا
أيـــنَ اشتعالُكِ فـي دمي ؟ أيـنَ
انغماسُكِ في السَّجايا ؟؟
أيـن القصيدةُ ؟ أيـن مـا لحنْتِ
واقْتــرفتْ يدايـــا ؟
أيـن الحكـايـاتُ الَّتـــي شيَّدتِنيْ
فيهـــا حَكايـا ؟؟
أيـن انسكـابٌ كنتِ تحـــتلِّينَ في
فمِهِ ظَمايـــا ؟؟

أوَ لمْ تكونـــيْ تهتفيـــنَ: تعالَ
، ، ، خذْني يا فتايـا ؟
أَخذلتِ كلَّ الشـــوقِ هـــذا ؟ مَنْ
سيحتضنُ المرايــا ؟
مـــزَّقتِ قلـبَ مُمـــزَّقٍ
في نبضِهِ تُـروى المَنايــا !!
لِمَ يا بنةِ الشَّمـــعِ احتجبْـتِ عليَّ في
وَهَجِ النَّوايـــا ؟
و أنا ..... تـركـتُ العالَميـــنَ ....
وجئتُ مُستبقاً عمايــا
قدريْ : انْكساري !!
أينَ طيْـــفُ حبيبـةٍ مـــلأتْ
رؤايــا؟؟؟
أوَّاااهُ !! يا وجعـــيْ !! .. و كـلُّ
أحبتي خـــذلوا نِـــدايـا ...
..... و .... مُلِئتُ بالأحبابِ حتَّـــى لم
أجدْ حولـــيْ سوايـــا
مِنْ أجـلِ ساكنـــةٍ دمــي أمضيْ
..... و أذرفُني خَـلايـــا
بيضـــاءَ مِنْ طـــولِ البُكـاءِ أمـــامَ
أقمصـــةِ الصَّبــايا
صفـــراءَ مِنْ طــولِ احْتـراقِيْ
عنـــدَ أقْدَامِ الهـدايـا
كالـــذَّبْحِ مِنْ طـولِ العِنَـــاقِ
لِذكـــرياتٍ مِـنْ شظـايا
كاللَّمْـــحِ مِـنْ طولِ انتظـاريْ في

شـــوارِعَ مِنْ أسايـا
كـ (أنا) !! كـ (أنتِ)!
كأيِّ مغفـرةٍ أُحيطتْ
بالخطــايـــا!

يكتبنا الأنتِ لنكتب الأنا الحائرة بين السؤال والجواب بين الواقع والخيال لتقف على شفا برزخ يفصلها عن حقيقة وجودية تتلهف لمعرفتها ولا تستطيع احتضانها فيبقى الجواب حيرة والسؤال سيف كلمة شاعر ينزف الوجع مع ذكريات حاضرة مرسومة على ملامح حبيبة غافية غائبة في وجدان الذات الإنسانية.

إلى أين يا أنتِ ؟ أيتها المفقودة الموجودة الحالمة الناعسة بين أحضان المعاني المتوشحة بالخفاء على أرض الأبجدية........؟ وينطق لسان حال قصيدة تناشد الحضور فيجيبها الفقد، تبحث عن سعادة اللحظة، فيجيبها وجع الوجود الكامن في الأنا، لتكون الأنثى صورة غادرها المعنى ومعنى بدون ملامح، صفة لموصوف فقد حضوره، أو حضور فقد معناه ...... وتعود بنا الذاكرة إلى تفاصيل وحدة وجودية لمشاعر جارفة تواقة للانعتاق تتخلق على أرض واقع يجسد حقيقة ثنائية الخلق الأول، ليتوحد المكان والزمان وتولد اللحظة الفارقة، الخارقة لواقع الأنا فيكون للمطلق خيال حقيقة، وللحرف معنى الوجود، وللكلمة صورة حسناء تتجلى على قلب شاعر، وللقصيدة ملامح اختزلت لحظة الخلق الأول على أرض إنسان الكون.......... يخترق النداء صداه ليكون لزلزال الأنا حضور في وجدان المتلقى، وصوت يدوي في أرجاء إنسان الفقد ...يااااااااااااااااااااا أنتِ.......

قصيدة تقول لنا إنها ...... هي .... كانت هنا لتغادر ملامحها الشاعر ويبقى شذاها ذكرى محملة بوجع ذكريات اللحظة الأولى، لحظة انثيال الإحساس الجارف بأنثى الوجود الأول وولادة صفاء يحتضن طبيعة خلَّقها الحب فكانت أرض وجد وهيام......

يجعلنا الشاعر أحمد عبد الغني الجرف نقتحم عالمه المشبع بالفقد وجنون اللحظة المبدعة والخلاقة لموسيقى شاعرة تخترق

جدار صوت الأنا، ليكون للحضور جمال آخر، وللفقد معنى الوجود وللصورة أرض تحتضن حركة محمومة لحيرة شاعر فقد أناه ليقول:

يا .. (أنتِ) !! واحترقتْ (أنايا)! يا ..
(أنتِ) يا معنايَ .. يا .. يا ..
جُرِّدتُ مِنِّي كــيْ أكــونَــكَ، هل
ظفرتِ بمحتوايا ؟
أوشكتُ -   حتَّى في خــطابيْ -
أنْ أواجهَــني بلا (يا)
أحرقتُ كُــلَّ بدايـــةٍ وخذلتِ
عنــدَكِ مُنتهــايا
وطمستِ رائحــةَ الغــرامِ، ذبحـتِ
أشجانَ الزَّوايــا

يحترق المعنى في أتون الغياب لتبقى الكلمة شاهدا والأنتِ نداء يحتضن صداه قصيدة ناشدها الفقد فاستجابت القوافي لتكون اليا........ قفلة ونوتة موسيقية تعبر عن شجن الشاعر واختفاء الكلمة الاسم ليبقى المعنى وجعا ينزف حيرة تذوب فيه الأنا...... تتلاشى مفرداته القادرة على تشكيل عالم آخر له سلام دائم ديمومة سعادة الخلق الأول، لكن إنسان الحاضر، في ذاته عالم ما بعد الغواية حمل في ثناياه خلودًا زائفا سرعان ما تبخرت مفرداته ليبقى لسراب اللحظة احتراق على أرض التيه ووحدة في زمن تكاثر الحكايا.

للمعنى ياء تحدد هوية الكلمة ووجودها ففي ظل احتراق "أنا" الكلمة يغيب المنادى ويبقى النداء صوت بدون صورة، ومعنى فقد الكلام وكلمة غفت في أحضان الصمت، هي الياء التي تغادرنا ليبقى الفقد سيدا، والحضور غياب، والمحتوى سراب كلمة، وعطر لمعنى، وذِكر له صمت الذكريات......

يقول الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي:

كل ذلك وأشباهه في أبواب مبوبة في هذا المجموع وأشكال منصوبة بصناعة عملية ليَقْرب على الطالب مأخذ الفوائد والمعاني منها ويتصور المعنى في نفسه صورة متجسدة تُسهِّل عليه العبارة عنها لقوة حصولها في الخيال ويحرص الناظر على استيفاء النظر حتى يقف على كلية معانيها إذ المعنى إذا أدخل في قالب الصورة والشكل وتعشق به الحس وصار له فرجة يتفرج عليها ويتنزه فيها ذلك الشكل فيؤديه ذلك

إلى تحقيق ما نصب له ذلك الشكل وجسدت له تلك الصورة ولهذا ما أدخلناه في التصوير والتشكيل. (إنشاء الدوائر الصفحة ٣).

هكذا نرى أنّ قوة المعنى تكمن في حقيقة يمتلكها الشاعر لتُمكنه من مفرداتها، يرسمها الخيال صورة تحتويها الرؤية فتجسدها اللغة الشاعرة على أرض القصيدة لنرى أنّ قوة تدفق المعنى الملهم للشاعر أفقدت الخيال القدرة على رسم الصورة ليقف الشاعر أمام صمت الكلمات وكأنه أمام حقيقة لها نور يبهر العين لتبقى اليا...... معلقة صوت سابح في عالم الملكوت لمنادى مجهول الهوية والأنت ضمير حاضر غائب.

حضور اليا...... واختفاء المنادى يجعل الخطاب يتيما بلا انتماء والمُخاطَب حاضر غائب موجود مفقود.

يحتضن التيه مشاعر الإنسان لتصبح بمثابة رمال متحركة تحترق في أتونها بداية سعادة اللحظة ومنتهاها، لتنبئنا الصورة والكلمة والقصيدة عن حيرة شاعر يعيش إشكالية التعبير عن سر معنى نقطة هي اختزال لفلسفة الوجود.

يتخلل القصيدة نَفَس صوفي يجعلها تنبض حبا وحياة، تتحرك الصورة الشعرية ويكون لها ترميز إلى مفهوم الإنسان الكامل الجامع لجميع العوالم الإلهية والكونية بكلياتها وجزئياتها ليعبر الشاعر بالمعنى الموجود لصورة مفقودة، عن بداية تحتوي نهايتها لنعيش على أرض القصيدة مشاعر جارفة تحترق عند ولادتها فيكون الخذلان منتهاها وكأنّ حياة الشاعر العاطفية انطلقت وتوقفت في نفس المكان.

فمن رحم طبيعة أرض الأنثى، إلى رحم أرض التراب نرى أنّ الإنسان ينطلق من نقطة ليعود إليها وبين نقطة البدء والنهاية يعطر عالم الشاعر رائحة غرام وأشجان زوايا تشعل شموع أسئلة تحتار بين نقاط استفهام لا جواب لها ليقول:

أيـنَ اشتعالُكِ فـي دمي ؟ أيـنَ
انغماسُكِ في السَّجايا ؟؟
أين القصيدةُ ؟ أيـن مـا لحَّنْتِ
واقْتـرفتْ يدايـا ؟
أين الحكـايـاتُ الَّتـي شيَّدتِنيْ فيهـا

حَكايــا ؟؟

أين انسكـابٌ كنتِ تحــتلّينَ في فمِهِ ظَمايـــا ؟؟

تتربع الأنثى على عرش القلب لتحتل كل المساحات يجسد وجودها شعر شاعر لا يستطيع التخلي عنها ولا احتضانها. يشقيه حنين ويطيح به وجد، فهو الأصل الذي يحن إلى فرعه، وهو الوليد الذي يتوق إلى أمه، وهو الحبيب الذي يبحث عن حبه إلى أن ينتهي به المطاف فيدخل في حالة تماهٍ لتكون الأنا أنتِ والأنتِ صورة تحتل الأنا لتذوب فيه وتجري منه مجرى الدم وتسري في عروقه سريان النار في الهشيم ليكون له اشتعال يجعله طريح سؤال غامض غموض حاله ... أين انغماسك في السجايا ؟ سؤال غريب غرابة موقف غير مدرك الجواب لأنه يوحي بخروج الأنثى عن طبيعتها الفطرية والتي تشكلت في صورة أنثى قصيدة لحنتها وأقترفتها يد شاعر متيم في حضورها والغياب، يحن إلى حكايا شيدته حكايا لتتماهى الأم مع الحبيبة وكأنها امتداد لوجودها..... صورة تجعل الشاعر ينتقل بين عالمين الأول عالم خلق فيه، والثاني عالم شيده خياله ليكون موصولا بالأول لا يستطيع الانفصام عنه، مقطوعا عن الثاني لا يستطيع الوصول إليه، ويبقى السؤال عطش ظامئ يبحث عن الارتواء أمام صحراء الجواب ليقول:

أولمْ تكونــيْ تهتفيــــنَ : تعالَ، ، ، خذْني يا فتايـا ؟

أَخذلتِ كلَّ الشــوقِ هـــذا ؟ مَنْ سيحتضنُ المرايـا ؟

مــزَّقتِ قلـبَ مُمــزَّقٍ في نبضِهِ تُـروى المَنايـا !!

للأنثى إغراء وتمنع ولشاعر القصيدة انكسار لا يفارق خياله، يتضاعف الشوق لحبيبة خذلتها الرؤيا فغابت أمام مرآة الخيال وفقدت القدرة على التماهي مع مشاعر شاعر أصبح يعيش معاناة التمزق ووجع يلازم قلبا تُروى في نبضه المنايا ... يجتاح الشاعر إعصار وجداني يفقده الإحساس بلذة الحياة في عالم صنعه خيال الواقع ليتوق إلى أخرى وكأنه يحتمي من معاناته بموت يجعله يفقد الحس بالألم ليتخلق من جديد ويجتاز ما به من تمزق، بين الشيء ونقيضه

تعيدنا الصورة الشعرية إلى ما جاء في القرآن الكريم يقول تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ٧ ﴾ [سبأ: ٧]

أمام حيرة وجودية تجعل من الشاعر ساحة تتفاعل على أطرافها نقاط استفهام تناشده الجواب، وأمام عطش وتشرذم الذات لمشاعر حب خلقت بها لتحيا معها، نجد الشاعر يحتمي بالخيال ليُخَلِّق الكلمة المعنى، والقصيدة الأنثى، ويتوارى من واقع حال يعيشه ليبحث عن مآل يصبو إليه، ولحظة سعادة يخلد إليها ليقول:

لِمَ يا بنةِ الشَّمـــعِ احتجبْـتِ عليَّ في
وَهَجِ النَّوايـــا ؟
و أنا ..... تـركـتُ العـالَميــنَ ....
وجئتُ مُستبقاً عمايـا
قدريْ : انْكساري !! أينَ طيْــفُ
حبيبةٍ مـلأتْ رؤايـا ؟؟؟
أوَّاااهُ !! يا وجعيْ !! .. وكـلُّ أحبتي
خـذلوا نِـدايـا ...
..... و.... مُلِئتُ بالأحبابِ حتَّــى لم
أجدْ حولـيْ سوايـــا

للنوايا وهج وللخيال صورة لحبيبة سكنت وجدان شاعر لتصبح بنتا يتماهى بياضها الناصع مع شمع حمل ذات يوم في ثناياه رحيق زهر له عطر نوايا صارت ذات احتراق وهجا تذوب له المشاعر ويحجبها الخفاء.

للشاعر لهفة وللحبيبة صد.....

أهو الدلال المتمنع أم الحياء المغري؟ أسئلة تحجب رؤية شاعر ترك حياة الصخب لينعم بالقرب، وهو الذي يستبق قدره ويترك الانكسار ورائه ليجد السراب أمامه ...... يختفي طيف الحبيبة ليسكن خيال الرؤيا ووهم الواقع، ويبقى الوجع مقيما له كمون الجبال، وصرخة الاحتراق ووجع الحنين أمام مرارة الفقد وخذلان الأحبة فرغم الصور المتكاثرة التي تسكن الشاعر ووجدانه يبقى لثنائية الوجود طعم آخر لا يعرفه غير أهله، فعلى أبوب غياب الحبيبة يقول الشاعر (لم أجد غيري سوايا) صورة تتجلى على قسماتها حقيقة يعيش الإنسان حالها لأنها تسكنه يشعر من خلالها بالوحدة فتصحبه الغربة ليتعرف على حقيقة وجود خلق فيه فردا ليغادره فردا.

للإيحاء شفافية وللإبداع معنى وللصورة رمز، وللكلمة تجليات يستعملها الشاعر ليفصح عن وجود يسكنه وعن حزن لا يعرف له فراق، وعن حب أقام فيه وتخلله لا يدرك له بداية ولا نهاية ليصبح جزءا منه ليقول:

مِنْ أجلِ ساكنةٍ دمـي أمضيْ .....
وأذرفُني خَـلايـا
بيضاءَ مِنْ طـولِ البُكـاءِ أمـامَ
أقمصـةِ الصَّبـايـا
صفـراءَ مِنْ طـولِ احْتـراقِيْ عنـدَ
أقْدَامِ الهـدايـا
كالـذَّبْحِ مِنْ طـولِ العِنَـاقِ
لِذكـرياتٍ مِـنْ شظـايا
كاللَّمْـحِ مِـنْ طـولِ انتظـاريْ في
شـوارِعَ مِنْ أسـايـا
كـ (أنا) !! كـ (أنتِ)!كأيِّ
مغـفـرةٍ أُحيطتْ بالخطـايـا !

يحترق الشاعر عشقا لأنثى تسكنه معنى وتتخلى عنه كيانا، تحتويه ليكون بُعدها عنه نارا حارقة يذرفها خلايا بيضاء أمام أقمصة الصبايا .... تعود بنا الذاكرة إلى قميص يوسف عليه السلام وبياض عيني سيدنا يعقوب تختلف المواقف ليبقى الحزن واحدا، يتماهى مع ألوان الطبيعة الإنسانية وتقلباتها تبيض خلايا الذاكرة تارة وتصفر أخرى تحت وطأة احتراق النفس مع ذكريات تشظت أمام نار الجحود.

يتمثل الشاعر نفسه مدينة سكنها الحزن ورسم شوارعها الأسى، ليكون فيها خيالا سائحا، تاهت منه الأنا ليتلاشى وجود الأنتِ في زحمة الحكايا ويتوارى في ثنايا الذاكرة.

يختم الشاعر القصيدة بصورة فريدة ضمّنها معاناته كفرد ليختزل فلسفة الوجود في المحيط الإنساني، فيكون هذا البيت كالنقطة التي اختزلت مياه البحار:

كـ (أنا) !! كـ (أنتِ)!كأيِّ
مغـفـرةٍ أُحيطتْ بالخطـايـا !

تنقلنا الصورة إلى عالم آخر لتحيط بنا قصة سيدنا آدم ونتذكر جنة الخلد ونعيمها، والغواية وجحيمها ،والخطايا والمغفرة ،لأقول هل شقاء المحبين هو نتيجة السقوط في جب الغواية؟ أم أنّ الشقاء أمر مكتوب على أهل الأرض ؟

يبقى للشاعر حيرة أمام أسئلة وجودية لا يستطيع التخلص منها ليتذكر صورة أنثى سكن رحمها وهو علقة لتسكن فؤاده وهي مضغة، تنشأ بين جنبيه يحن إلى قربها ووجودها حوله حتى يبعثها اللّه تعالى على أرض الواقع لتكون حواء فرع يتوق إلى أصله.

اختزلت القصيدة معاناة الشاعر الإنسان لتعود بنا ذاكرة الصورة إلى حياة الخلق الأول (آدم وحواء) يسري بنا خيال الشاعر ويعرج من أرض الواقع إلى سماء حقيقة عرفها في يوم من الأيام ليعيش لحظة تجلي على أرض قصيدة، أرهقها فأرهقته، أرقته الذكريات فأرق أنثاه ..... مزج بين الحقيقة والواقع وكان الخيال حاضرا بينهما يوقد شموع الرؤيا ليتوقف الزمان على أرض خلقت لتكون الثابت المتحرك تشهد أحداثا تتكرر ولا ينقضي أمدها فمع كل صرخة طفل يولد، يخلق إنسان جديد حاملا لميراث إنسانية تنزفه خلايا عبر سني عمره.

للقصيدة حياة وروح من روح شاعر يغوص في عمق محيط ظلامه دامس ليطفو على سطحه ويعانق خيوط الشمس، فبين الظلمة والنور، يتنقل الشاعر بحرفية اللغوي المتمرس والمتمكن من ريشة الرسام البارع، ليُلقي المعنى الحي في روع الصورة ويحدث شرخا بين عالمين يصعب تجاوزه... بين من يكتب الشعر انطلاقا من واقع الخيال، ومن يكتب الشعر انطلاقا من خيال الحقيقة.

للواقع ظلمة وللحقيقة نور يجعل للمعنى تجليات، وللصورة الشعرية حركة وحس على أرض قصيدة تصبح آهلة بأرقى المشاعر وأصدقها تتفاعل وتأثر في كل من يكون بين يديها، تسكن وجدانه فيشعر بروعة جمال الصورة وعذوبة حلاوة معنى له نماء في عقل وفكر يعزف لحن شاعر تتهادى على إيقاعه قوافل القوافي لتقول لنا كنت هنا ...

لأنها الـ(أنا) التي تكتب الـ(أنتِ) ... ولأنّ القصيدة وبكل تلقائية الكلمة ... أنثى.

❖ ❖ ❖